عرفت عبد الحسين في بستان كنت اختلف اليه بصحبة كتبي لأقرأ فيه ، إذ لم يكن بيتنا الصغير الضيق صالحاً للقراءة ، فهناك شقيقاتي الخمس اللواتي يصرفن طيلة اليوم بين جدرانه وهن يتحدثن باصوات عالية مع الجارات الرائحات الغاديات لملء أوانيهن من مياه « الاسالة » او لاستعارة شيء او لقضاء الوقت . وهناك اختي الصغيرة التي تنفق بياض النهار في بكاء مزعج مثير للاعصاب وكأنه هوايتها الوحيدة ! وهناك اطفال الطريق الحفاة القذرون الذين اتخذوا زقاقنا الضيق القصير ميداناً للعبهم ؛ وراحوا يصلون الليل بالنهار في زعيق وعراك وسباب . فكان افضل مكان اهتديت اليه للخلو بنفسي هو ذلك البستان الواقع في طرف المدينة ، وكان عبد الحسين يحضر دوماً ليجمع ثمار اشجار الرمان والتفاح التي اشترى محصولها لذلك العام . وقد اعجبني هذا الرجل منذ وقعت عليه عيناي ، فوجهه الناصع البياض يفيض بالبشاشة والخير ، وملامحه الصغيرة الدقيقة تنمّ عن نفس طيبة ، ولحيته الرمادية القصيرة توحي بالهيبة والوقار . وكانت احاديثنا في بدء تعارفنا لا تتجاوز التحية وتبادل عبارات قصيرة عن الجو . ثم تنوعت مواضيعها يوماً بعد يوم ، الى ان قال لي ذات يوم وقد بدا التردد على وجهه : عمي رؤوف ، اريد ان اسألك سؤال .

فقلت : تفضل .

فقال : عمي شعجب تكفي وگتك بطّال ؟ !

فقلت : الحقيقة اني مرغم على ذلك ، فادارة الكلية فصلتني لبقية العام الدراسي لأني اشتركت بمظاهرة وطنية ، والاشتراك في المظاهرات محرّم على التلاميذ .

فقال بدهشة : عجايب ! چا لعدمنو اللي راح يفتهم الوضع احسن منهم ؟!

فقلت : لا تستغرب يا عمي عبد الحسين ... قليل من امور بلدنا تتماشى مع التفكير السليم .

فقال مؤمّناً على كلامي بهزّ رأسه : عمي صحيح .. هوّ شنو الماشي حسب الاصول هنا . أشو الواحد مثلاً ياشي اللي يمدّ إيده عليه يلگا غالي . والفلوس تطب منّا وتطلع منّا . متنكمش مثل الزيبگ ! الواحد ما يگدر يجمع اه چم قرش ذخر لأهله ما يدري باچر شيصير ما ... بيا ساعة يدير وجهه .

فقلت : هذا صحيح ، ولكن الحمد لله انّ صحتك جيدة . وبكره أولادك يكبرون ويصيرون رجال كاملين .

فاكفهر وجهه وغمغم بلهجة مرة : وين عمي ؟! شفايتْ لي لوالله منّ عليّ بها النعمة ؟!

فقلت : يعني ما عندك اولاد ؟

فأجاب بمرارة وقد لاحت في عينيه ظلال ألم عميق : الله رزقني بولد واحد !

فقلت : فيه الكفاية والبركة ، بكره يحل محلك .

وانقطع الحديث بيننا بهذه العبارة ، وهبطت على عبدالحسين كآبة ثقيلة ! حاولت ان اصل بيننا الكلام فعجزت ، ثم قام بعد قليل وألقى التحية بتمتمة خافتة وانصرف .

حينما اختفى عن عينيّ بدأت أراجع حديثنا بدقة وتأنّ . بماذا تفوّهت فمست جرحاً في قلبه ؟! وضربت على جبيني اخيراً وقلت : انه ولده ، وذكره مسؤولٌ عن حزنه الفجائي .

تبدد عني هذا الغموض وإذا بي أواجه غموضاً آخر . لماذا تأثر عبدالحسين لذكر ولده ؟ ! كانت لهجته في الحديث عنه تفيض بحزن غريب لا سبيل الى تبديده ! وقفز إلى مخيلتي شبحه الكئيب فأثار شجوناً عميقة في نفسي . أهو فضول ؟ لا اظن ، فلست اعهد في نفسي حب الاستطلاع الفائض عن حدّه .

يحرص كاتب القصة ، الاستاذ شاكر خصباك ، على ايراد الحوار باللغة العامية ، اي كما يجري في الحياة على لسان ابطال قصته . وهو هنا يبعث من جديد قضية خلقها كتّاب اوائل هذا القرن ثم ماتت او كادت بعد وقت قصير .

و « الآداب » تخالف الكاتب في رأيه ، وتدعو الى استعمال الفصحى في كل أثر ادبي فني ، ولها في ذلك حجج وبراهين . ولكنها تترك للقراء الكرام اولاً ان يناقشوا هذه القضية ، قضية اللغة العامية في الحوار ، ولا ريب في ان النقاش نفسه سيحمل فائدة جلى .

وسخرت من مشاعر الكآبة التي جثمت على صدري . ما شأني به ؟ ولم هذا الانزعاج ؟ ألا يكفيني ما يكتنفني من الشقاء ؟ ! طرد من الكلية ، وحرمان عاطفي وضيق مالي ، وقلق وسأم ، وعشرات المآسي التي تواجهها العين وتستوعبها الاذن كل يوم فتخلف في النفس المرارة والالم .

لم يكن التفكير المنطقي بمجدٍ لي للانصراف عن سرّ عبد الحسين وولده ، وظل هذا السرّ شاغلاً ذهني . جربت في الايام التالية بطرق شتى أن أسوق عبدالحسين للخوض في شؤونه الشخصية كي يفصح عن سرّه . حدثته عن نفسي ، عما ألاقيه من صعاب في حياتي ، عن المجرمين الذين وقفوا في طريقي وأضاعوا عاماً من حياتي ، علّ تلك الاحاديث الشخصية تشجعه على الافضاء إليّ بذات نفسه . فماذا حدث ؟ جواب واحد ظل يردده كلما فرغت من الحديث : « هذي دنياتنا يا عمي رؤوف .. شسوّي ؟ ! » . وبتّ اتحرق شوقاً لذكر ولده . كلما طال صمته التهبت حماستي . كنت اخشى مفاتحته بالسؤال لئلا اذكره بآلامه . ثم وجدتني ذات يوم أسأله فجأة وبدون سابق تصميم : كيف حال الاخ يا عمي عبدالحسين ؟

فأجاب باقتضاب : على الله .

وركن إلى الصمت . فقلت بعد تردد قصير : الحقيقة اني احب ان اعرفه .

فانتفض كالحيوان الجريح وهتف بانزعاج : عمي شتعرف منّه ؟ ! خد واحد صگط ملتهي ببلواه .

فتمتمت بتأثر : متأسف .

بقي عبد الحسين يمسح دقائق مطرق الرأس . ثم رفع رأسه اخيراً وقال ببطء : والله عمي انت عزيز عندي تر . . لكن ما ما ادري شجاني .

فسارعت اقول بلطف : لا داعي للاعتذار في الحقيقة ، فانا اخطأت بتوجيه الحديث هذه الوجهة .

فصمت قليلاً ثم قال : تريد الصدگ يا عمي رؤوف ؟ آني مالّ من الناس وعمايلهم . بس يعجبهم يتفرجون على مصايب غيرهم . وآني هم ما شاء الله مصيبتي قليلة ، الله رزقني بولد واحد وگرّمه ! ! بالله عليك ، هالطفل هذا شنو ذنبه ؟ ! باچر إذا متت شراح يسوّي ؟ ! وها المرّة فوگ قهري الله سلّط عليّ ناس اراذل متغرضيلي ويمكن باچر عگبه يگتلوني عن آني ضمنت ها السنة رمان وتفاح هاي البستان بدالهم حتى اطگطك بها بالتكتّان احسن ما أشتري من برّه . زين إذا صار عليّ قدر شلون راح يعيش هذا بين ها الناس اللي ما عندهم رحم ولا إنسانيه ؟ !

فقلت : الحق معاك ولكنك مبالغ في تخوفك نوعاً ما ، ولا داعي للخوف من القتل .

فقال باستنكار : ليش عمي انت ما تعرف الوضع ؟ ! أشو كتلة الانسان صارت مثل كتلة الچلب .

فقلت : ولكن ليس الى هذا الحد . وكذلك فخوفك على ابنك لهذه الدرجة مبالغ فيه ايضاً ، وما اظن الاخ عاجزاً عن العمل رغم عاهته .

فتمتم : والله هو يشتغل فوگ بلوته ما مقصّر .

وصمت لحظة ثم قال : متشرّفنا فدْ يوم بالتكتّان .

وكنت انتظر هذه العبارة بلهفه ، فقلت بحماسة : أتشرف .

وكان اول شيء عملته في الصباح التالي هو المرور بدكانه ، لكن ولده عباس لم يكن موجوداً . واعدت الكرة عصراً فرأيته . شاب في حوالي العشرين من عمره يكاد يكون نسخة من ابيه . بشرته الناصعة البياض المشوبة بحمرة خفيفة ، ملامحه الصغيرة الدقيقة الجذابة ، عيناه الصغيرتان ، بسمته المشرقة . كان مقتعداً كرسياً منخفضاً من القش ، وساقاه مختفيتان في ثوبه الفضفاض . لم تكن تبدو عليه دلائل المسكنة التي ترتسم عادة على وجوه المنكوبين . ورأيته بعد ذلك كثيراً وتحدثت اليه . فقد صار من عادتي ان امرّ بالدكان صباح كل يوم وألبث فترة من الزمن . وكنت ألاحظ من دلائل حب ابيه له ما جعلني اعتقد انه اكثر من مجرد حب والد لولده . كان يعامله كانسان كامل . وكان يعهد اليه باعمال قد لا يستحسن العهود بها لمن تشلّه عاهة عن الحركة . فكنت اعجب كيف ابدى لي يوماً من الرثاءله ما اوحى إليّ بانه يشك بقدرته على العيش بنفسه!

*

استيقظت ذات صباح في ساعة متأخرة كعادتي ، واذا باخواتي يتحدثن في ضجة وصخب . فخرجت إلى باحة الدار منزعجاً وقلت باستياء : ابتدأت اللغوة من الصبح ؟ !

فاستولى الصمت على اخواتي جميعاً ، ثم قالت اختي الكبرى : ـ مو أكو واحد بالعگد اليم عگدنا ذابحيه البارحة بالبستان اسم الله عليك .

فهتفت بارتياع : من ؟ ! عبدالحسين العباس ؟

فنظرت إليّ بدهشة وقالت : شمدرينا والله عيني يمكن هوّ .. خطيّه المكرور يگولون عند ولد مگرّم .

فهرعت إلى ملابسي وارتديتها عجلا وجريت الى منزله . واستقبلني صراخ النساء وعويلهن من بعيد. وكان عشرات منهن يتجمعن على باب الدار وفي الزقاق وهن يتحدثن باهتمام ، وحاذيت جمهرة منهن ، فقلت وكأنني اخاطب نفسي : دفنوه بسرعة ؟ !

فالتفتت إليّ امرأة حافية القدمين ترتدي عباءة صوفية زرقاء حائلة اللون ، وقالت وهي تحاول ان تحجب بعباءتها نصفاً من وجهها : ليش يمته خلّوهم الظلاّم يجيبوه للحوش ؟ ! اخذوا للقصطخانة حتى يگطعوه بعد ، الله يگطّع رگابهم .

فأسرعت إلى المستشفى . لم يكن هناك من معارفه سوى ولده عباس . ولمحته من بعيد وهو متجمع على نفسه في إحدى زوايا الردهة الخارجية للمستشفى، وقد امتدت ساقاه الكسيحتان امامه ، ودنوت منه . كان متكئاً على الجدار وهو ساكن الحركة كأنه استحال الى قطعة من الحجارة ، وكان وجهه جامداً لا أثر فيه للحياة . وكان خطان غليظان من الدموع يجريان على خديه بصمت وينحدران الى عنقه ثم يختفيان تحت ثوبه الفضفاض . وهتفت به في تأثّر صادق : صحيح عملوها به ؟ !

فهبّ من جموده ، وما ان رآني حتى تدفقت دموعه وصاح بصوت باك : خويه رؤوف ، گتلوا لأبويه . . خويه رؤوف ، گتلوا لأبويه .

واغرورقت عيناي بالدموع . لست اتذكر بالضبط متى

بكيت لآخر مرة ، لكنني فعلت ذلك منذ عهد بعيد حينما كنت طفلا . وقلت بلهفة : أيمكن ان أراه ؟

فأجاب وهو يواصل نحيبه : خويه ما يخلّون أحدّ يشوفه . . خويه گتلوا لأبويه . . خويه گصوا راسه . . گصوا لراسه خويه .

وتركته وهو يبكي بكاء الاطفال ووجهه يزداد شحوباً واتجهت الى غرفة التشريح . كانت رغبتي قوية قاهرة في رؤية عبدالحسين للمرة الاخيرة ، وافلحت في غرضي بعد محاولات متعبة . ووقفت جامداً امام جثته الممدودة على طاولة التشريح احدّق فيها وانا احسّ بغثيان ودوار شديد في رأسي . وتقاذفتني افكار عميقة بعيدة المدى . . اية وحشية تلك التي تنطوي عليها نفس الانسان ؟ ! وكيف تمتد يده بالسكين الى عنق إنسان مثله فتذبحه كما تذبح الشاة ؟ ! وغادرت المكان متقزز النفس وانا اشعر باحتقار لهذه الخيارة المزيفة التي لم تمس جوهر الانسان المتوحش فتغيره او تصقله !

*

لم انقطع عن عادتي في المرور على دكان المرحوم عبدالحسين صباح كل يوم وانا في طريقي الى البستان ، وكانت حالة عباس تثير في قلبي حزناً لا حد له . فقد حطّم مقتل ابيه روحه المعنوية تحطيماً كلياً . تلاشت النظرة المرحة المتفائلة من عينيه وبدت فيهما نظرة قاسية تكشف عن ألم عميق . واكتسب وجهه طابع الكآبة والذل ، واخذ يقضي الساعات وهو صامت ساهم . وبدا عاجزاً عن العمل ، بل لم يكن يهتم في الحقيقة لأي شيء . لم يكن يشغله سوى امر واحد هو مصير قاتل ابيه .

قال لي ذات يوم وهو عابس الوجه : أگلك ليش ما دتكمش الشرطة قاتل ابويه ؟ !

فأجبته : لا بد من التحقيق الطويل يا عباس . ما يجوز يقبضون على متهم بدون أدلة كافية .

فقال في حدة : ليش هوّ القاتل ما معروف ؟ !

فقلت : مهما يكن الامر فما يصح القبض على متهم لم تتوفر الادلة ضده . . انت تتذكر بالطبع كيف ذهبتُ الى مفوض التحقيق يوم حدوث الجريمة ، واخبرتُه بما عندي من معلومات واتهامات حول شخص معيّن كان يخشى المرحوم منه ، ولكنهم عجزوا عن القبض عليه لعدم توفر الادلة الكافية ضده .

فسكت على مضض . كان الحقد والغيظ يغليان في صدره!

« التتمة على الصفحه ٥٤ »

الكسيح ...

« بقية القصة المنشورة على الصفحة ٣٢ »

ولم ينقطع يوماً واحـــداً عن الذهاب الى مركز الشرطة والسؤال عن قضية ابيه . وكان ذلك يضطره الى إغلاق الدكان اغلب ساعات النهار . وحاولت ان اصرفه عن هذه الطريقة المضيعة للوقت ، فقلت له يوماً : لا بـد ان تنصرف الى شغلك يا عباس وتترك المسألة تأخذ مجراها الطبيعي .

فنظر إليّ بدهشة واستنكار وقال : تريدني أعيف قضية أبويه وأدير بالي على شغلي ؟ ! ليش شراح أقبض من الشغل ؟ !

فقلت : كيف تعيش اذن ؟ ! أتأكل هواء ؟ !

فقال بلهجة احتقار : وشلّي بها العيشة الزفرة ؟ ! ابويـــه ابويه تاكل بي الدود والقاتل ماله يمشي بطوله .

فقلت : ولكنك ستموت جوعاً ان اهملت العمل بهـــذا الشكل ، فدكانك يكاد يكون خالياً من البضاعة .

فاجاب : اموت من الجوع للمكبره.. ليش آني دا أشوف للأكل طعم من يوم ما مات ابويه ؟

وصمت لحظة ثم قال وهو يحدق بانظاره في الفضاء البعيد : ما راح أگدر آكل اللگمة مثل ما يگلوها الناس إلا يوم مـا اشوف قاتل ابويه متعلك من ركبته ود يرفّس بالهوا.

وومض في عينيه بريق مخيف وصرّ على اسنانه كذئب يطبق فكيه على فريسته . وادركت منـذ ذلك اليوم ان من العبث مناقشته في سلوكه تجاه هذه القضية . لكنه كان ينحدر في مهوى مخيف . فلم يقتصر الامر على إهماله العمل ، وعجزه عنه ، وفراغ دكانه من الفواكه إلا القليل الرديء ، بل امتـد الخطر إلى صحته ، فاخذ يذوي يوماً بعد يوم، واستحال احمرار وجهه إلى اصفرار فاقع ،واسودت جفونه وبدا في عينيه الاجهاد والكلال . كنت ارقب حالته المريعة وقلبي يحزّه الألم ولساني عاجز عن نصحه . الى ان قال لي ذات يوم وهو مقطب الوجه قلق النظرات : البارحة مِنْ راجعت الشرطة طردوني .

فقلت باستنكار : عجيب !

فقال : والله . لمّن شافني مفوض التحقيق صاح بوجهي : ولك انت ما ابتلينا بيك وبأبوك ؟ ! متروح انت تدوّر عـلى اللي گتله اذاً تگدر .

فتمتمت بتأثر : يا نذل يا ابن النذل .

وصمت برهة صمتاً غريباً . وكانت عيناه تشعان ببريق من الحقد الهائل . ثم تمتم وهو يضغط عـلى مخارج الالفاظ وانظاره مسمّرة في الارض : يگول لي روحانت دوّر على اللي گتل ابوك .. ليش الله عرف ينطيني رجلين سويت الأوادم حـتى أراوي لهذا ربّه منو ؟ ! لو بيّه خير چان خلّيته لهذا متمتّع بدنياه يوم واحد ورا ابويه ؟ ! لكن مع الاسف الله صگّطني .. الموت احسن لي من ها الحياة .

وتحولت انظاره الى ساقيه الملتويتين اللتين التصق لحمهـــا بالعظم وتقلصت قدماهما فبدتا ككرتين صغيرتين . ونفث من صدره حسرة طويلة وكأنه نفث معهاجزءاً من قلبه ! وأحسست بقشعريرة باردة تسري في ظهري ، وآمنت انه لن يـتردد في تمزيق جسد قاتل ابيه باسنانه لو كان ذلك باستطاعته !

وقلت بعد صمت قصير : لا تيأس على كل حال ، فالمفوض طردك لانك ألححت عليه كثيراً بذهابك كل يوم .. وانا ارى ان تترك المسألة لهم فالشرطة مسؤولة عن القبض على القاتل ..

فقال بحدة : قابل يعني اجوزمن قاتل ابويه ؟ ! لعد الشرطة لويش خالّيها ؟ !

فقلت : ولكن يا عباس ، هذه ليست الطريقة الصحيحـــة للاسراع بمعاقبة القاتل ...

فقاطعني بحدة : لعد شسوّي ؟! أگدر آني ألزمـــه للقاتل وأخنگه بيديّ ؟! لو أگدر ما چان رحت كل يوم لها المناعيل الوالدين أتذلل لهم ..

فقلت : انا لا اقصد ان تقتل القاتل بنفسك ، فعقاب المجرم من اختصاص الحكومة ، لكني ارى ان تقلل من ذهابك الى «المركز» . واجبك ان تشتغل لتعيّش امك وتعيّش نفسك ، ماذا تعمل إذا تبدد كل المبلغ الذي خلفه لك ابوك ؟

فسكت لحظة ثم قال بلهجة ساخرة : آني ادري لويش كل يوم تعيد عليّ لازم تترك المسألة بيد الشرطة ...آني ادري .. حتى انت متراجعهم فد يوم وتـگلهم يكمشوه للقاتل .

فتملكني الحنق ، وقلت بخشونة وانا احاول السيطرة على اعصابي : انا لا اسمح لك ان تتكلم هكذا . لقد اديت واجبي ووضعت بين يديهم كل ما اعرفه عن الجريمة ، وبقي عليهم ان يحققوا فيها ، وهذا يحتاج الى وقت .

وصمتُ لحظة ثم قلت بلهجة غاضبة : ولكنك ما تحاول ان تفهم هذه الحقيقة ، وتريد منهم ان يشنقوا الشخص الذي تعتقد

انه القاتل في الحال ؟ وهذا هو منتهى الجهل .

ثم القيت عليه التحية بتأثر وانصرفت . وقلّ مروري بالسوق منذ ذلك اليوم، وكنت ارى دكانه مغلقاً اغلب الاحيان، وكثيراً ما حاولت ان ألقي عليه التحية ، لكنه كان يغض طرفه ووجهه يفصح عن الغضب والانزعاج . وتصرمت اسابيع عدة . وبينا كنت ماراً بالسوق ذات يوم ناداني عباس بصوت مرتبك، ولما دنوت منه طالعني وجهه النحيل وقد اشتد اصفراره وغارت عيناه ، وتمثلتُ صورته يوم كان ابوه حيـاً ... شتّان بين الصورتين ! كان الاضطراب الشديد واضحاً على وجهه ودلائل الذلة والمسكنة منبثقة من نظراته . قـال لي بصوت مرتجف ذليل وشفتاه ترتعشان وعيناه تعبران عن ألم بالغ : خويه رؤوف سوّي لي چاره .. وين أروح .. وين أولّي ؟

فقلت باهتمام : خيراً ؟!

فقال بلهجته المتألمة الذليلة : اليوم لمّن راجعت الشرطة طردوني وگالوا القضية انسدّت لعدم العثور على القاتل .

فهتفت باستنكار : عجيب !

فاستمر يقول بلهجة ذليلة جزعة : خويه باصرني ... وين اروح .. إلمن اشتكي .. يعني آني چا واحد فقير يطردون بيّ ! چا أبويه ما عند ظهر تروح گتلته بالهوا ؟! اخويه رؤوف ... گتلة أبويه يصير تروح بالهوا ؟!

وتمتمت بتخاذل : قيمة الانسان ضائعة في هذا المجتمع !

وركنت الى الصمت وانا احس بنفسي تفور غيظاً وألماً ، وتفرست بوجه عباس المتدفق بكآبة عميقة الغور .. وبدا كأنه فقد أباه اليوم، او ان اباه بُعث الى الحياة ثم مات مرة اخرى ! ولم أدرِ ماذا اقول او افعـل ، وكيف يمكن ان تحلّ تلك المشكلة : اذا حفظت القضية فستظل مغلقة الى ان يظهر دليل جديد يلقي ضوءاً على الجريمة ، وعدت أتمتم وكأنني احـدث نفسي : قيمة الانسان ضائعة في هـذا المجتمع ... اذا حفظت القضية فستظل كذلك الى ان يظهر دليل جديد ... ولكن كيف يظهر الدليل بدون تحقيق ؟! لا قيمة للانسان هنا..

وسمعت عباس يقول بصوت يائس باكٍ : شلون لعد خويه ؟ گتلة أبويه تروح بالهوا ؟ خويه انت شلون تقبل ؟ شلون تروح گتلة أبويه ؟ خويه سوّي لي چاره..

واستولى علينا صمت كئيب . وفجأة انفجر عباس في بكاء عنيف ، وراح ينشج نشيجاً مراً وهو يردد : بويه قتلك راح بالهوا .. بويه قتلك راح بالهوا ..

وتصبب العرق البارد من جسدي ، وشعرت بخزي عظيم ، ثم قمت وانا مطرق الرأس وانصرفت في صمت وبين جنبيّ ثورة متأججة .

وفي اليوم التالي علمت ان عباس شنق نفسه .

بغداد — شاكر خصباك

كامل بكداش واولاده
قرطاسية وادوات المدارس
والمكاتب وجميع اصناف الورق
بيروت — شارع المعرض
تلفون ٨٤/٥٥